الخطاب الحسيني وأثر القرآن فيه

م.د. عبد الحسين طاهر محمد الربيعي
جامعة سومر/ كلية التربية الأساسية

م.م. علي صاحب عيسى
جامعة ميسان/ كلية التربية الأساسية

ملخص البحث:

هذا بحث انبثق من تأمل الخطاب الحسيني في نهضته، ومعاينة ارتباط هذا الخطاب بالخطاب القرآني؛ ليكون الخطاب المُنتج – بفعل الاستحضار المكثف والمكين للثقافة القرآنية – خطاباً ذا إنتاجية تناصية قادرة على التأثير في المتلّقي أيَّ تأثير؛ إذ ينصهر الخطابان في بنية شكلية أسهمت في تماسك الخطاب وعمّقت دلالاته، فضلاً عن أنّ مُنتج الخطاب الإمام الحسين(عليه السلام) أدخل فرديته في خطابه في ملحمته الفريدة.

إنّ المواءمة بين الخطاب الحسيني والخطاب الكوني – خطاب القرآن، مما يستوقف المتلّقي ويعمل على تغيير جوّه الاعتيادي وكسر أفق توقعه؛ ليدخله في دائرة الدهشة الصادمة والتي تؤدي إلى تداعي الأفكار بما يحمله من نظام الإشارات.

وقد رصد الباحثان ما انماز به الخطاب الحسيني المتعالق مع كلمات الله سبحانه، من إشراق وعفوية وتراكيب طيّعة لا تعقيد فيها ولا التواء، مما يشي بقوة الملكة والبيان الآسر على الرغم مما واجهه صاحب الخطاب من محن وخطوب، وقد عزا البحث كل هذا إلى عمق ارتباط الخطاب وصاحبه بالخطاب القرآني في مضامينه كلها، أوامره ونواهيه وعِبره وأحداثه ومواعظه.

Abstract:

This research grew out of hopes Khattab al-Husseini in the renaissance, and preview link this speech, the speech of Quranic; to be a discourse product - by conjuring intensive and Almkan culture Koranic - speech a productivity Tnasih able to influence the recipient no effect; it melts speeches in a formal

structure contributed to the cohesion of the speech and it deepened its implications, as well as the product that the speech of Imam Hussein (peace be upon him) Enter individuality in his speech at the unique odyssey.

The alignment between the rhetoric and discourse cosmic Husseini - the Koran speech, which immobilize the receiver and works to change the faces of the ordinary and break the horizon of expectation; to enter in the circle of surprising and shocking that lead to Brainstorming the magnitude of the signal system.

The researchers monitored Anmaz his speech Husseini Almtaalq with the words of God Almighty, of sunshine and spontaneous and structures malleable not complicate nor sprain, which demonstrates strongly Queen and the statement Captor despite what confronted by the owner of the speech of tribulations and Ktob, attributed Find all of this to the speech link depth Quranic discourse and its owner in all of its contents, orders and prohibitions and through the events and his sermons.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، والصلاةُ وأتمّ التسليم على رسوله الصادق الأمين محمدٍ بن عبد الله، وعلى آله المعصومين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، ورضي الله عن أصحابه المنتجبين الذين شادوا الدين وجاهدوا معه في الله حق جهاده وما بدلوا تبديلاً.

وبعدُ...

فإنّ الأمم تفتخر بما يقدّمه مفكروها من إنجازات علمية وثقافية، وتتسامى ببطولات قادتها وثائريها ولاسيّما الذين وقفوا مدافعين عن قيم السماء، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الجور والطغيان والفجور والغرور السفلى، ومما تفتخر به الإنسانية عموماً والأمة الإسلامية خصوصاً قائد النهضة الحسينية، هذه النهضة التي كان بطلها الشخصية الفذة المتفردة في الإيمان والشجاعة والفداء، تلك هي شخصية الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام).

لقد أعطى الحسين (ع) للإنسانية كل ما وهبه الله سبحانه؛ لذا عُدّت نهضته مَعْلَماً بارزاً من معالم المجد والخلود والسؤدد، فنهضته امتداد للثورة المحمدية الرائدة؛ إذ زخرت سيرته بالدعوة والكفاح درءاً

للمفاسد وطلباً للإصلاح، فقد أوصل من نشيد الخلود ختام القصيدة بالمطلع – على حد تعبير الجواهري في عينية رائعة له.

وآثرنا في هذا البحث الموجز أن نتأمل كلمات الحسين وخطابه متتبعين هذا الخطاب في نهضته الرائدة في الحجاز ثم ملحمته في كربلاء، لنقف على نصوص الإمام صانع هذه الملحمة، ومدى ارتباطها بالنصوص القرآنية بوصفها خطاباً كونياً، ولنفضي إلى القيم الإبلاغية والتأثيرية التي أتاحها هذا التعالق النصي بين الخطاب الإمامي والخطاب الإلهي؛ ولأن الإمام الحسين أدخل خاصيته الفردية في خطابه؛ لذا توجهنا إلى الكشف عن هذه الخاصية، وحسبنا أننا تأملنا ما يمكن أن يطلق عليه بيانات الملحمة الحسينية، وتأثرها بالقرآن الكريم في أوامره ونواهيه وقصصه وعبره، وبما يحمل من حوادث ومواقف وشخصيات اتكأ عليها الخطاب الحسيني الملحمي وجسّدها واقعاً في كربلاء؛ إذ نجد استدعاءً مكيناً للشخصيات القرآنية ولاسيّما شخصيات الأنبياء(عليهم السلام) وما حدث لهم مع أقوامهم ومخالفي نهجهم القويم.

كل ذلك سيكون مدار هذا البحث الموجز الذي نأمل منه الوقوف على فاعلية التعبير في الخطاب الإمامي، الذي رُصَّن باستدعاء النصوص القرآنية في منظومة التناص وآفاق هذه التناصية، ليكون النص الجديد مكتنزاً بما لا حصر له من الدلالات التي سنراها في الخطاب الحسيني في ملحمته الخالدة.

الخطاب مفهوماً ومصطلحاً:

يُعدُّ الخطاب أحد المصلحات التي تمثل بل تثير إشكالاً كبيراً في الساحة النقدية، ومما يزيد هذه الإشكالية تعقيداً هو أنَّ كثيراً من الدارسين أخذوا يخلطون بين مفهوم الخطاب ومفهوم النص، فهل ثمة فرق بين المفهومين؟

ودفعاً لهذا اللبس، واستناداً لما وقفنا عليه مما استقر عليه المصطلحان النقديان، نقول: إننا نطالع تعريفاً غربياً لسانياً للخطاب للعالم اللساني(زيليغ هاريس)؛ إذ يقول: "ملفوظ طويل، أو هو متتالية من الجمل تكوّن مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من(العناصر) بواسطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا نظلُّ في مجال لساني محض"(١).

أما النص فهو كما يقول الدكتور محمد مفتاح "مدونة كلامية، وحدث متصل بالزمان يوصف بأنه تواصلي، تفاعلي منغلق في سمته الكتابية، له صفة التوالد والتناسل"(٢).

والنص في الرؤية الغربية "بنية لغوية لها قدرٌ من قوة الصياغة شكلاً، بحيث تغنيه في ذاته عن البحث عما هو خارجه من إمدادات تقع في شرك ما هو اجتماعي أو سياسي، فيما يمكن أن يمنحه المؤلف؛..."(٣).

بَيْدَ أنّ المدرسة الأسلوبية تنظر إلى الخطاب نظرةً أخرى؛ إذ عدّته إنجازاً لغوياً، فقد عرّف الدكتور عبد السلام المسدّي الخطاب بأنه "خلق لغة من لغة"(٤).

ويمكن أنْ يقال بعد تأمل هذه المفهومات النقدية المذكورة آنفاً، إن الخطاب قد يتحول من صفة الإخبار إلى صفة التأثير بما يتوافر فيه من عناصر جمالية تمنحه الأدبية التي لا تكون كامنة في جزء من الخطاب، وإنما هي "وليدة التركيبة اللغوية للخطاب، أي وليدة ما ينشأ بين عناصر الخطاب اللغوية من أنسجة متميزة وبذلك يكون الخطاب بمثابة تفجير ما في اللغة من طاقات تعبيرية كامنة فيها"(٥).

والأدبية بهذا المفهوم تلقي شعوراً بالجمال يمتع النفس ويغذي القلب.

وأخيراً فالخطاب يمكنه – والحالة هذه – أن يتجاوز حدود زمانه ومكانه ليجيء شاملاً مستوعباً ما يتواشج مع حيثياته البنائية والمضمونية ولاسيّما إذا كان تركيبه اللغوي يؤهله لهذا الكمال وهذه الشمولية.

الخطاب الحسيني – التكوين والفاعلية التعبيرية:

ولنتأمل الخطاب الحسيني منذ دعوة الإمام وحتى نهضته في ملحمته العظيمة لنتدبر كم يحتجن هذا الخطاب من ألفاظ القرآن ومعانيه وأحداثه وصوره لنقف على فاعلية هذا الاستدعاء للنصوص القرآنية، فقد قال الإمام، موجهاً خطابه إلى كلِّ من سَمِع وعَلِم بنهضته:

"... وإنّي لم أخرج أشِراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مُفسداً، وإنّما خرجتُ لطلب الإصلاح في أمة جدّين أريدُ أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي فَمَن تبعني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومَن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين..."(٦).

هذا الخطاب الذي أعدّه الإمام – عليه السلام – وصية لأخيه محمد بن الحنفية يقول عنها أحد الباحثين إنّها "ترسم معالم المنهج الذي سار عليه الإمام الحسين(عليه السلام) في خروجه..."(٧).

وجدير بالذكر أنّ الإمام(عليه السلام) لمّا خرج وأهل بيته، إلاّ محمد بن الحنفية، من المدينة وتوجهوا إلى مكة المكرمة ترك وصيته المذكورة آنفاً عند محمد بن الحنفية في المدينة، بَيْدَ أنّه – وفي أثناء توجهه – كان يكثر من تلاوة قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٨)، ولزم الطريق الأعظم فقال له أهل بيته: لو تنكبت كما فعل ابن الزبير كي لا يلحقك الطلب، فقال: "لا والله لا أفارقه حتى يقضي الله ما هو قاضٍ" ودخل مكة وهو يتلو قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ﴾(٩)؛ لذا كانت آيات الله البيّنات أولى كلماته وهو يترك المدينة ويتوجه إلى مكة ليصدع بنهضته المباركة.

هذا الخطاب "لم أخرج أشراً ولا بطراً...) الذي يشكل البيان الأول للنهضة الحسينية يتعالق أو يتناص مع الخطاب القرآني، ففي قول الإمام (عليه السلام) "لم أخرج أشراً" يشير ويستدعي قصة النبي صالح (عليه السلام) مع قومه ثمود؛ إذ قال سبحانه وتعالى حكايةً عن نبيه صالح وقومه ثمود: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۝ فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ۝ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾(١٠)، فثمود كذّبوا

نبيهم صالحاً(عليه السلام)، فقالوا: كيف نتبع من هو ليس من طبقة الأشراف أو الرؤساء؟ إنّه كذّابٌ أشرُ يريد التطاول علينا، والحسين (عليه السلام) في خطابه، استحضر القصة القرآنية بشخصياتها وأحداثها وأجوائها ليأتي بها في خطابه لعلها تكون حجةً على قومه ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾(١١)، استدعى هذه القصة المكينة في خطابه لقومه الذين أنكروا حجته فجاء بالمعاني القرآنية ملتزماً بأوامر الله ونواهيه، وهذا الاستدعاء نأى بالخطاب الإمامي عن الرتابة؛ لأنّ تناص خطاب الحسين (عليه السلام) مع الخطاب الإلهي رفع كفايته وعمل على إحداث الدهشة عند المتلّقي؛ إذ أنّ المفردة القرآنية لها جمالها المميز وواقعها النغمي وتآلفها المُعجز مع العبارة والسياق والمعنى، فإذا ما التحمت بالخطاب الإمامي جاء الخطاب الجديد ذا عمق معنوي ودلالات تحمل آفاقاً إلهية وكونية وإنسانية فسيحة توحي إلى المتلّقي بالمعنى فيشعر به شعوراً عميقاً.

وعدا هذا فالحسين (عليه السلام) وكما مرّ ذكره، أدخل فرديته في الخطاب، لأنه جُبل على النهج القرآني في سلوكه وتطلعاته وقيادته وامتداده المحمدي، وفردية الحسين عصمته نراها – بمفهومها الأوسع – الملكة الفعلية والقولية؛ إذ امتدت هذه الملكة لتمنح خطابه هذه القدرة التعبيرية والسهل الممتنع وقوة الحجاج المستمدة من مضامين القرآن وقصصه وعبره.

بَيْدَ أنّ كلّ متلقٍ يختلف باختلاف وعيه وأجوائه، فما أشبه ثمود ببني أمية! وما أشبه النُذُر بحجج الإمام الحسين (عليه السلام)! حتى قال قائلهم واصفاً الإمام (عليه السلام) بالكذب.

فالخطاب الإمامي خطاب يتجاوز سعة الأفق المكاني والزماني مما يمنحه خلوداً على امتداد الزمان والمكان، فهو يمتد أفقياً ليشمل الأمكنة كلها ويمتد شاقولياً ليستوعب العصور والحقب بما وُهِب من عناصر الشعرية وقوة الإيحاء، أجل؛ لأن ذلك يتعلق بشخصية حامل الخطاب وانتسابه الكوني.

وفي قوله (عليه السلام): "لم أخرج أشِراً ولا بَطِراً..." هناك فرق بين اللفظتين (أشراً، بطراً) في اللغة، الأشِر: أشدُّ البطر، وقيل الأشِر: الفرح والغرور. وقيل الأشر والبطر: النشاط للنعمة والفرح بها ومقابلة النعمة بالتكبر والخيلاء والفخر بها وكفرانها بعدم شكرها(١٢).

في هذا المقطع من خطابه (عليه السلام) نراه ناظراً إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(١٣).

والذين خرجوا من ديارهم هم كفّار قريش خرجوا من مكة للدفاع عن القافلة، وكان خروجهم بطراً؛ إذ قيل لهم أرجعوا حيث نجت القافلة وليس بكم حاجة إلى الخروج إلاّ البطر، فقال أبو جهل: لا نرجع حتى نقدم بدراً ونشرب فيها الخمور وتعزف عليها القيان، ويسمع بنا الناس، وهكذا لقوا في بدر الهزيمة المنكرة والهوان والذُلّ والصغار، ومعروف عن أبي جهل بطرهُ وتجبّره وزهوه وعجرفته وطغيانه حتى كان يقول:

"أنا أعزّ وأكرم مَن في مكة"؛ لذا نزل قوله تبارك وتعالى تهكماً وسخريةً مما ستؤول إليه حالته في جهنم ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾(١٤).

فشتّان بين خروجهم بطراً وخروج الإمام الحسين (عليه السلام)، فالإمام ينفي عن نفسه أن يكون خروجه بطراً أو لهواً أوعبثاً (لم أخرج بطراً) فالإمام حاول أن يستحضر ما يشابه الموقف السلبي لبني أمية وجيوشهم المتهيئة لقتاله (عليه السلام) فحوّل الاقتباس واختصره إلى بنية مكثفة لإيجاد التقارب الفكري والنفسي بين الموقفين، بين موقفه منهم، وموقف النبي صالح (عليه السلام) من ثمود الذين كذّبوه، أو بين موقفه هو(عليه السلام) في خروجه إلى كربلاء وموقف كفار قريش الذين خرجوا دفاعاً عن القافلة ولم يعودوا إلى ديارهم ماكثين في اللهو والعبث سادرين في غيهم وعنتهم، فالاقتباس أو إن شئت التناص، تجاوز حُجُبَ الماضي وأشار إلى مساوئه.

لذا انتفع الخطاب الحسيني من المضامين القرآنية التصويرية التي تشي بقوة صبر الأنبياء ومواجهة عناد أقوامهم وطغيانهم ليأتي حضور التراث القرآني داعماً هذا الخطاب ومؤكداً إيّاه "إنّ التحليل التداولي للخطابات، وهو مبدأ يشترك فيه الماضي والحاضر في عملية الإبداع لتوليد نص شعري يتحدث من خلاله الشاعر إلى الحاضر خلال الماضي"(١٥).

هذا الاستحضار المكثف للثقافة القرآنية جعل الخطاب الحسيني يتحول لأن يكون من سنخ الخطاب القرآني الكوني ويحقق إنتاجية تناصية قادرة على التأثير في المتلّقي أيّ تأثير.

ثم أردف الإمام الحسين قائلاً "... ولا ظالماً ولا مفسداً..."، فهو يستحضر قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(١٦)، وهذه الآية المباركة تكررت مرات في سور مختلفة لشدة النهي ولزوم الابتعاد عن الفساد في الأرض.

هذا التفاعل بين الخطاب الحسيني والخطاب القرآني أوصل الخطاب الجديد إلى الانسجام الدلالي لينصهر الخطابان في خطابٍ واحدٍ وقد تمّ هذا الانصهار بجمالية بارعة وقوة تأثير؛ إذ إنّ هذه الوحدة الكلية والبناء المتكامل تمت لتضع كل جزئية من جزئيات الخطاب في مكانها المكين من النص.

فالاقتباس الإشاري أو النصّي المحوَّر لم يأتِ اعتباطاً وإنّما عمّق دلالة النص فضلاً عن توافر بنية شكلية متراصة أسهمت في تماسك الخطاب الحسيني، فأدبية النص تزداد كلما زادت قدرته على إنتاج الدلالة الضمنية.

إنّ منتج الخطاب وارتباطه بالقرآن الكريم؛ إذ هو خريج مدرسة الوحي، فأبواه عليٌّ وفاطمة (عليهما السلام) وجدُّه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي عبّر عنه الباري جلّ ذكره ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾(١٧).

هذا الارتباط الوثيق بكتاب الله – عزَّ وجلّ – جعله يستحضر الصور القرآنية بكثافة وشمول فقوله المذكور آنفاً قد ذيّلهُ قائلاً: "... إنّما خرجتُ لطلب الإصلاح في أمّة جدّي...".

فالحسين في هذا المقطع من خطابه بل بيانه الأول، قد استحضر قوله سبحانه وتعالى على لسان نبيه شُعيب (عليه السلام): ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[١٨].

فجلّ غاية النبي شعيب (عليه السلام) هي الإصلاح، فردوا عليه قائلين: ﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾[١٩].

والحسين (عليه السلام) يؤكد هذا المعنى الرسالي (الإصلاح) الذي أمر به الله سبحانه وتعالى.

فكان خروجه (عليه السلام) سبباً في إحياء الدين وبعث روح الجهاد والتصدي للظلم والباطل والتعسّف والجور والطغيان المتمثل في بني أمية وكفّار قريش، فاستند (عليه السلام) في موقفه وغايته (أي طلب الإصلاح) إلى قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): "مَن رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله، ناكثاً عهد، مخالفاً لسُنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يُدخله مُدخله"[٢٠].

ومفاد الحديث الشريف ينطبق على بني أمية، ويتضح ذلك من قول أبي عبد الله (عليه السلام) نفسه: "ألا أنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحّلوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيّر"[٢١].

أجل ففي زمن بني أمية، عُصي الرحمن، ونُصر الشيطان، وخُذل الإيمان، لذلك أراد الإمام الحسين (عليه السلام) أن يعيد الأمور إلى نصابها الحق لما فيه خير البرية وصلاح الأمة.

وعودٌ على المقطع المذكور آنفاً من خطابه (عليه السلام) نلحظ هذا الخطاب قد استعمل أسلوب القصر بـ(إنّما) "إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدّي..." ؛ إذ قصر خروجه (عليه السلام) لطلب الإصلاح في أمة محمد جدّه (صلى الله عليه وآله وسلم) أما الأسلوب القرآني على لسان النبي شُعيب (عليه السلام) فقد استعمل أسلوب القصر أيضاً بـ(إنْ) النافية والاستثناء، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ...﴾.

ومثلما ردَّ قوم شعيب على نبيهم: ﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ...﴾ بغياً وتمرداً وعناداً وطيشاً، ردّ الأمويون على الإمام (عليه السلام) قائلين له – بعد أن خطب فيهم ووعظهم وذكّرهم بغايته الكبرى – الإصلاح – ، "لا ندري ما تقول انزل على حكم ابن عمك (يقصدون يزيد بن معاوية) وإلاّ فلسنا بتاركيك"[٢٢].

هذه المواءمة والتواشج إنما انبثقت بفعل التداخل النصي بين الخطابين، الخطاب الإمامي وخطاب القرآن مما يستوقف أفق تلقي المخاطَب ويعمل على تغيير جوّه الاعتيادي ليدخله في دائرة الدهشة الصادمة، وهذا ما يُطلق عليه كسر أفق التوقع، وقد تجلى مثل هذا في خطاب الإمام الحسين المتناص مع الخطاب

القرآني الذي نزل به الروح الأمين، فالإمامة إزاء تمثّل الخطاب الإلهي تعبّر عن إطروحتها الكونية من قبل السماء؛ لذا قرنت بلزوم العدل وقد جسّد القرآن هذا التلازم إذ قال سبحانه وتعالى لخليله إبراهيم (عليه السلام): ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٢٣].

إنّ إحداث هذه المفارقة في واقع المواجهة الملحمية التي طرفها الأول الإمام الحسين والثلة الصالحة التي معه وطرفها الثاني الأمويون وطغيانهم وجبروتهم وجيوشهم، وما حمله خطاب الحسين (عليه السلام) المفعم بكلام الوحي وتطلعات النبوة، هذه المفارقة التي تمت بفعل تناص كلامه (عليه السلام) مع كلام الله عزَّ وجلَّ، هي التي منحت خطابه (عليه السلام) فاعليته التعبيرية ووهبته الاتساع والخلود على امتداد الزمان وتغير الأفق المعرفي – كما بيّنا – فهذه التناصية المكثفة المتدفقة بلا تعقيد ولا التواء ترينا هذا الاندماج بين الخطابين.

فالحسين (عليه السلام) في خطابه ينفي عن نفسه أن يكون ظالماً أو مفسداً ويأتي قوله رداً على القائلين بالشبهة أو الأغلوطة التي تقول إنَّ الإمام – بخروجه على يزيد – ظلم نفسه وعياله كما يذهب مبغضو آل البيت وما أكثرهم!.

وفي تعبيره "لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً..." قد استحضر الآية المباركة حيث نهى سبحانه وتعالى عن الفساد فقال جلّ ذكره: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[٢٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[٢٥]، أيّ لا تكونوا شديدي الفساد في الأرض، فما أكثر الآيات في هذا الخصوص!

بهذا التناص المتمثل بالاستدعاءات القرآنية، في الأسلوب والمضامين، أضفى الإمام على سلوك الأمويين السلبية المستندة إلى مخالفة المنطق، الأمر الذي يزيد المتلّقي وهو يتأمل ما اتصفوا به من عنت وطغيان، قناعة بمصداقية توجه صاحب الخطاب وعدالة قضيته، بما أحاله خطابه على القرآن الكريم؛ إذ ينهى عن الظلم والفساد في الأرض.

وجدير ذكره إنّ مثل هذه التناصية التي أفضت إلى تداخل النصين يعبّر عنها النقد الحديث بأنها "علاقة حضور مشترك بين نصين أو عدد من النصوص بطريقة استحضارية وهي في أغلب الأحيان الحضور الفعلي للنص في نصّ آخر"[٢٦]، فالتناص هو (التقاطع والتعديل المتبادل بين وحدات عائدة إلى نصوص مختلفة"[٢٧].

وبذا صلح موضع التناص في الخطاب الحسيني؛ ليكون المحور المركزي للمعاني والدلالات الصادمة للمتلقي والتي أكدها الإمام في ملحمته ذات الطابع الفريد.

ويمكننا أيضاً أن نتلمس ما يحتجنه الخطاب الحسيني من تحولات؛ إذ تحوّل من الوعظية والتشريعية إلى الأدبية التي اشتملت على عناصر الخطاب التي أهلّته لتعدد القراءة وانفتاح الفضاءات في التكامل النصي؛ إذ عملت البنية البديعية (أشراً، بطراً)، و(ظالماً، مفسداً)، و(آمراً بالمعروف، أنهى عن المنكر)... على تماسك بناء النص مُلقيةً بظلالها على الخطاب ومتلقيه.

وعلى صعيد البنية النحوية ونعني معاني النحو فإنّ الفعل في خطابه (عليه السلام) (لم أخرج) المضارع يتميز باستحضاره الصور أمام عين المتلّقي وذهنه ويضفي عليها قدرات تعزيزية؛ إذ يُسهم في زيادة حركيتها بحيث تبدو أمام أنظارنا حيّة متحركة[٢٨].

أمّا الإخبار في الفعل الماضي إذ أخبر به عن الفعل المضارع الذي مثّله قول الإمام (عليه السلام) في خطابه نفسه "...إنّما خرجتُ..." فهو عكس ما تقدّم، وفائدته ان الفعل الماضي إذا أخبر به عن المضارع – والحسين لم يخرج بعد – كان أبلغ وآكد، وأعظم موقفاً، وأفخر شأناً؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان وجد وصار من الأمور المقطوع بها، والمحكوم بكونها وحدوثها والفرق بين الماضي وبين الإخبار بالفعل المضارع من الأشياء الهائلة التي لم توجد، أو من الأمور المتعاظمة التي لم تحدث فتجعل عند ذلك مما قد كان ووجد واقع الفراغ من كونه ووجدانه، أما المضارع إذا أُخبر به عن الماضي فإنّ الغرض بذلك تبين هيأة الفعل، واستحضار صورته ليكون السامع كأنه يعاينها ويشاهدها[٢٩].

والخطاب القرآني المستحضَر بوصفه خطاباً تداخل مع خطاب الحسين (عليه السلام) عند استحضاره داخل خطاب حاضر قد خضع بالضرورة لعلاقات متشابكة تتسع تارةً وتضيق تارة أخرى، وهذا يتوقف على مؤهلات صاحب الخطاب، ليمازج الخطاب القرآني بخطابه والإمام أجدر بهذا التمازج وتفعيل هذه التناصية في خطاباته.

أجل ان أهل بيت النبوة أقدر على تفعيل التناصية بين خطابهم والخطاب الإلهي ولو تأملنا مقاطع من خُطب الإمام علي (عليه السلام) لهالنا هذا التعالق المدهش المكين بين كلامه ونصوص الكتاب المبين، بحيث يصعب عليك فصل الخطاب المضاف عن أصل كلام الإمام (عليه السلام)، وهكذا كل الأئمة إذ شكلت التعابير القرآنية العمود الفقري لخطاباتهم مبنىً ومعنىً.

ولا مندوحة لأيّ قائد أو مفكر إسلامي من الاتكاء في خطابه على آيات الله؛ لأن الاقتباس هو "تضمين الشعر أو النثر بعض القرآن لا على أنه منه بأن يقال فيه قال الله تعالى أو نحوه، فإنّ ذلك حينئذٍ لا يكون اقتباساً"[٣٠].

ففي قوله (عليه السلام): "أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر" لقد تكفّل الإمام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كونها مسؤولية شرعية لا مندوحة عنها، فضلاً عن المسؤولية الاجتماعية التي تحتم عليه أن يقف بوجه الطغيان ومَنْ أولى بحماية الأمة منه؟

لذا نهض بأعباء هذه المسؤولية الكبرى ممتثلاً لأمر الباري جلَّ وعلا ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣١].

لذا ثار الإمام (عليه السلام) ليعيد للخلافة الإسلامية – بمعناها الرسالي – صورتها الحقيقية التي أرادها الله تبارك وتعالى أن تكون لكنهم تقمصوها ونهبوها من أصحابها الشرعيين، وقضموها قضم الإبل نبتة الربيع، كأنهم لم يسمعوا الله تعالى يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣٢].

جاءت نهضته الفذة ليعيد قيم الإسلام إلى الأمة وتصحيح مسار المجتمع الذي جدّ الأمويون في تحريف منظومته الأخلاقية وطمس ذكر أهل البيت واستئصال مآثرهم ومحو مناقبهم حتى وصل الانحراف غايته حينما أمر معاوية خطباء بني أمية بسبِّ الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) على منابر صلاة الجمعة في مختلف البلدان الإسلامية.

فجاءت كلمات الحسين (عليه السلام) مؤكدة بالتعابير القرآنية المتضمنة وجوب هذه الفريضة الكبرى (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)؛ لأنها الفريضة التي تشكل السبيل القويم لدعوته المباركة لذا نجد الإمام جعفراً الصادق (عليه السلام) يخاطبه بزيارته "أشهد أنّك قد أقمت الصلاة، وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، وجاهدت في سبيل الله حتى أتاك اليقين".

إذن فللاقتباس القرآني الذي يؤدي إلى التناص في خطاب الحسين (عليه السلام) أثرٌ فاعلٌ في تعزيز الخطاب؛ إذ يعمل على نظامٍ من الإشارات والتي تؤدي بدورها، إلى تداعي الأفكار عند المتلّقي.

وقد يأتي الاقتباس إشارياً متساوقاً مع الحدث والموقف بما يحمله من دلالات متعددة تمنح الخطاب أفقاً رحيباً، فيتفاعل الخطابان معاً ليكونا خطاباً واحداً أكثر إثارةً ومرونةً وانفتاحاً على شاكلة خطاب أبي عبد الله (عليه السلام)، الذي يُعدُّ فاصلاً في ملحمته الخالدة؛ إذ قال:

"إنه مَن لَحِق بي استُشهد ومن تخلف عنّي لم يدرك الفتح والسلام".

فالإمام في خطابه هذا ناظر إلى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[٣٣]، وقال جلّ ذكره: ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣٤].

وهكذا يأتي اقتباسه من كتاب الله تبارك وتعالى ذا فاعلية قادرة على خلق حالة الإبداع في الخطاب بوساطة الانزياح بوصفه ظاهرةً كونية[٣٥] والذي يحدثه عند المزج بين الخطابات بأسلوب متميز يستحضر شخصيات الأنبياء ومواقفهم وما لاقوه من محن ودواهٍ ومواجهات بينهم وبين أقوامهم لمّا بُعثوا لإصلاحهم.

ولمّا استنصت الحسين (عليه السلام) جيش يزيد فأبوا أن ينصتوا له لجاجاً وعناداً فيهم فقال:

"أيّها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى أعظكم بواحدة وحتى أعذر لكم، فإن أعطيتموني النَصفَ كنتم شهداء، وإلاّ فأجمعوا رأيكم ثم لا يكن أمركم عليكم غُمةً ثم أقضوا إليّ ولا تنظرون، إنّي ولي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين"(٣٦).

لقد افتتح خطابه (عليه السلام) بالأسلوب الإنشائي المتمثل بالنداء الذي منح الخطاب الحسيني حركة وفاعلية وقصدية مؤثرة ولدّتها بنية النداء، والنداء أحد الأساليب الإنشائية التي تمثل اللغة في جانبها المتحرك وتعرب عن حيوية اللغة(٣٧).

لقد انبثقت كلماته من صميم الأسلوب القرآني في أوامره ونواهيه لتؤدي هذه الرسالة المفعمة بهذه المضامين والمحاطة بتشكيلٍ نصي آسر يفجّر طاقاته الإيحائية في أحرج موقف وأبعد متلقٍ عن الإصغاء.

تعود بنا كلماته (عليه السلام) ثانيةً إلى مواقف الأنبياء من أقوالهم؛ إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾(٣٨).

إنه يعظهم وفي ذاكرته آيات الله فقد قال المولى عزَّ وجلَّ: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾(٣٩).

بَيْدَ أنّه (عليه السلام) خاطبهم بـ(يا أيّها الناس) يقيناً منه بأنهم جانبوا الصواب وضيّعوا سبيل الرشاد، ونأوا عن الإيمان، فما أحوجهم إلى الأدلة الساطعة التي تثبت لهم أحقيته وصدق نهضته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لذا تلطّف في ندائه إيّاهم تلطّف القائد الحاني على أمته من الوقوع في حبائل الكفر والضلال فخيّرهم وقال لهم قولاً ليناً ولم يكن فظاً غليظ القلب؛ إذ يعدهم بالسعادة إن هم أنصفوه، وتأملوا موقفه ومسؤوليته الشرعية، وإلاّ فأهاب بهم أن يجمعوا أمرهم.

ولقد وصل هذا التلطّف ذروته حينما كان الحسين ابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تذهب نفسه عليهم حسرات خشية وقوعهم في الإثم والعدوان على شريعة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ولما ينتظرهم من غضب الله سبحانه وتعالى، وما يؤول إليه مصيرهم بعد تنفيذهم هذه الأباطيل الشنيعة بقتال أولياء الله وتحريف دينه القيّم.

ولنتأمل مقاطع من خطاب له يوجهه إلى من تهيأ لقتاله قائلاً:

"... أمّا بعد فانسبوني فانظروا من أنا؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها هل يجوز لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألستُ ابن بنتِ نبيكم (صلى الله عليه وآله وسلم) وابن وصيّه وابن عمّه، وأول القوم إسلاماً، وأول المؤمنين بالله والمصدّق لرسوله لما جاء من ربه؟ أوليس سيّد الشهداء عمَّ أبي؟ أوليس جعفر الشهيد الطيار ذو الجناحين عمّي؟"(٤٠).

لقد توجه الخطاب الإنشائي بهذه الاستفهامات إلى من لا يشارك المتكلم همومه وآلامه فتجاوزت بنية الاستفهام إنتاج دلالاتها الأصلية (طلب الفهم) إلى الاستنكار والتحسر والألم بسنن النكول والنكوص وعدم الاستجابة.

ونلحظ مما فات أن الإمام الحسين(عليه السلام) قد استعمل الاستفهامات البلاغية في الجملة الاسمية الاستفهامية مما ساعد على وصول معانيه إلى متلقيه حافلةً بالجمال الفني واللغوي؛ إذ استطاع أن يهزّ المشاعر ببياناته النثرية الرفيعة المفعمة بما يعرف لدى النقد الحديث بشعرية النثر.

استرفد الإمام (عليه السلام) – هنا – التناص من القرآن الكريم، واستعمال هذا التناص في هذا الموضع كان موفقاً غاية التوفيق الأمر الذي يومئ إلى ثراء معجمه القرآني واتساع حصيلته اللغوية مما ولّد هذا الأسلوب الطيّع الموصل للمعاني، لأن تناصه ليس مجرد حلية أو نافلة بل أثر ليكون في صميم النسج الفني للخطاب؛ إذ إن كل هذه الإحالات القرآنية تتوافق تماماً مع المعنى الذي أراده الإمام الحسين(عليه السلام) في تلك اللحظات الحاسمة وهو يواجه رموز الطغيان في ساحة المعركة.

إنّ هذه الاستفهامات الحسينية المتتالية التي صاغها الإمام في خطابه والمعتمدة على التقرير المفضي إلى الإثبات والوضوح؛ لأنّ العرض البياني من هذه الاستفهامات التقريرية إلزام المخاطب بالحجة وانتزاع الاعتراف منه بما يريده المتكلم، وفي ذلك غرض نفسي مطلوب.

ألا ترى أنّ استفهامات الإمام(عليه السلام) استندت هي الأخرى إلى نظيراتها الاستفهامات القرآنية والتي لم تغب عن ذهن الإمام (عليه السلام) على شاكلة قوله جلَّ ثناؤه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[٤١]، حيث ذكر في هذه الآية الكريمة ما يجري مجرى تقرير الحجة على جميع المكلفين[٤٢]، وقوله سبحانه وتعالى كذلك: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾[٤٣]، لذا "فالاستفهام في الشاهد القرآني هو إحدى المهيمنات الأسلوبية التي تجعل من اللغة جديرة بالتأمل بما تضفيه من مسحة جمالية تدعو إلى التصور والتأمل"[٤٤]، وهكذا صاغ الإمام استفهاماته الفاعلة على شاكلة الاستفهامات القرآنية؛ إلزاماً للأمويين بمعاودة التفكر في ممارستهم وحملهم على الإقرار بتلك الحقائق، كونه (عليه السلام) ابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وابن وصيه، وكون حمزة سيد الشهداء عم أبيه وجعفر الطيار عمه وتلك حقائق لا تقبل دحضاً؛ لذا جاءت استفهاماته التقريرية أوقع في النفس بما تحمله من انسجام مع المحمول المعرفي للمتلقي لذا استعمل الإمام الفعل المنفي المسبوق بهمزة الاستفهام.

ومن اللافت لكل من يتأمل خطب الحسين(عليه السلام) يجد أنّ خطاباته وأدعيته ومناجاته – وعلى الرغم من هول الموقف وعظم الفجيعة – جاءت في غاية الوضوح وقوة التأثير وحلاوة الجرس فلا التواء

ولا غموض انها كلمات الإمام الصادرة من قلبه والمفعمة بثقته بقضيته ومبدئه فلا تراجع ولا انكسار بل نُدهش حين نتأمل شفقته على أعدائه خوف وقوعهم في الإثم وعقاب الله سبحانه وتعالى وسخطه وغضبه.

ومثلما كان أبو عبد الله (عليه السلام) مستنداً في خطابه إلى التعبير القرآني، فقد استند في سلوكه وأفعاله إلى الوحي الإلهي أيضاً التحاماً بالأوامر الإلهية وتلبية لإرادة الله الذي لا رادَّ لكلماته. فهاك موقفين حسينيين كبيرين تلاحما مع الإرادة الإلهية بكل ما للسلوك من معنىً.

الموقف الأول: بعد أن استفرغ (عليه السلام) وسعه وقواه في خطبه، ناصحاً أعداء الدين وبذل النفس والنفيس في سبيل إعلاء كلمة الله الواحد الأحد، فكم ذكّرهم بآيات الله، بعد كل هذا حان وقت الصلاة، وأبو عبد الله في الهاجرة من ظهيرة اليوم العاشر من المحرم وهو لم ينسَ أو يتناسَ الصلاة التي كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً، مقتدياً بسيرة جدّه وأبيه، أبوه الذي لم يؤخر صلاته المفروضة وهو في أحلك الظروف؛ إذ صلّى ليلة الهرير في صفين والحرب ثائرة من حوله ولمّا ليمَ على ذلك ردّ قائلاً: "ألسنا نحارب لإقامة الصلاة؟" أليس هو الذي استشهد في محرابه.. والحسين كأبيه (ومن يشابه أبه فما ظلم) فقد صلّى بأصحابه وسط لهيب المعركة، صلّى بهم صلاة الحرب قصراً وسهام الأمويين تترى عليه.

تعدّ صلاته تظاهرةً صادقةً وخطاباً بليغاً يكشف مساوئ أعداء الدين وبعدهم عن الإنسانية؛ إذ قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوةً.

إنّ هذه التظاهرة الحسينية كما يقول السيد هبة الدين الشهرستاني: "برهنت على سوء نية العدو واستهانته بشريعة الإسلام فهي إن لم تبطل سحر العدو في أعين الناظر فقد أبلغت حجة الحسين إلى مسامع الغائبين"[٤٥].

أليس هذا الموقف اندماجاً أو تناصاً – إنْ جاز التعبير – مع الوحي واتصالاً بالله سبحانه وتعالى وتآلفاً مع الحق؟ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ...﴾[٤٦].

فأين هذه التظاهرة الإيمانية الصادقة من دعوة الأمويين الذين كانوا يتذرعون (بحبائل) الدين ضد نهضة الحسين (عليه السلام)؟ ومن هذه الذرائع أنّ أبا عبد الله الحسين خرج على إمام زمانه يزيد بن معاوية لغايات دنيوية وان يزيد هو الخليفة الشرعي بعد أبيه معاوية الذي أخذ له البيعة، ومثل هذه الإدعاءات السمجة ليس بنا حاجة إلى الردّ عليها.

فما أشبه الليلة بالبارحة إذ راح الإرهابيون يذبحون الأبرياء ويدمرون الحضارة الإنسانية وهم يرفعون أعلاماً كُتب عليها (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ويطلقون على تجمعاتهم المرعبة ومخططاتهم الظلامية وارتباطاتهم بالصهيونية العالمية والسائرين في ركابهم يطلقون على كل هذا ظلماً (الدولة الإسلامية في العراق وبلاد الشام).

إنّ صلاة الحسين (عليه السلام) في أحرج موقف لهي سلوكٌ يتداخل مع الأمر الألهي ليتوج به خطابه الإمامي المستند إلى الإنجاز وصدق القول والإخلاص في العمل، حينها ندرك كم كان للقرآن من قوة وتأثير انه ﴿يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...﴾[٤٧].

وثمة موقف ثانٍ برهن فيه الحسين (عليه السلام) على صدق دعوته وعظمة ملحمته وعمق امتدادها المحمدي لتكون أبلغ خطابٍ التحم بأوامر الله ونواهيه ومن أصدق المظاهر الدينية المتعالقة مع مواقف نبوية خالدة خلدها الخطاب القرآني، ذلك الموقف الحسيني المتمثل بمناشدته أعداءه بعدما خلا رحله من الماء واشتد بعياله الظمأ – حتى جفت المراضع وشحّت المدامع – تناول طفله الرضيع مقدماً إيّاه إلى العدو لعلهم يرفعون الحظر عن الماء، واقترب من الأعداء حاملاً هذه البيّنة المعصومة من أيّة جانحة أو جارحة وهو يقول: "يا قوم إنْ كنّا في زعمكم مذنبين فما ذنب هذا الرضيع؟ وقد ترونه يتلظى عطشاً، وهو طفل لا يعرف الغاية ولم يأتِ بجناية ويلكم أسقوه شربة ماء فقد جفّت محالب أمّه"[٤٨].

ويتلاحم هذا الموقف أو قل يتناصّ مع وصف القرآن قربان إبراهيم بالذِبح العظيم وذلك لآثاره الباقية في الحج والإسلام؛ إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[٤٩].

هذا الموقف وهذه التظاهرة فضحت أعداء الدين وأظهرت همجيتهم وجهلهم لمّا وجّهوا نبالهم إلى الإمام الرضيع؛ إذ أمر ابن سعد رامياً قاسياً هو حرملة قائلاً له: "اقطع نزاع القوم" فرمى الرضيع بسهمٍ نحره به فما كان من أبي عبد الله (عليه السلام) إلاّ أن أخذ دمه بكفّه متضرعاً إلى الله مردداً هذه العبارة الرسالية المتلاحمة مع مواقف النبوة "اللهم لا يكونن عندك أهون من فصيل" يعني فصيل ناقة صالح وحقاً فإن موقف الحزب السفياني يتعالق مع موقف عاقري ناقة النبي صالح (عليه السلام) وفي هذا الصدد يقول العلاّمة السيد محمد حسين فضل الله "...وكذلك عندما ندرس طبيعة الوحشية في هذه المأساة فإننا نجد أنها وحشية لا تستطيع أن تجد لها نظيراً فيما عاشه الإنسان من مآسٍ، وقد تضع قنبلة لتفجر مكاناً أو تقتل جماعة، أمّا أن توجّه سهماً لطفلٍ رضيعٍ لا لشيء سوى لقطع نزاع القوم، فجريمة في غاية البشاعة والوحشية"[٥٠]، وهكذا جدّ الأمويون الطغاة في محو أواصر الإنسانية واستئصال شأفة آل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقطع نسله.

موقفان هما ما هما في العظمة والشموخ وهما يتعالقان أشدّ التعالق مع الخطاب القرآني ويتحدان اتحاداً مع ما يريده الله، لا يقبل التجزئة ليدلا على عمق ارتباط الخطاب الحسيني بالخطاب القرآني.

إنّ أبا عبد الله (عليه السلام) وكما يقول العلاّمة السيد الشهرستاني "ترجم القرآن بروحه وعلمه ولحمه ودمه لأنه أعطى الإنسانية ما لم يعطها أحدٌ من العالمين، فأيّ مصلح ضحّى بدمه ومهجته ودماء أهله وأطفاله وإخوته وصحبه لا لشيء إلا لتكون هذه الدماء الطاهرة صاعقةً على كل ظالم، وقوةً لكل مظلوم، وحجةً تدمغ كل من سكت وساعد على الظلم والعدوان في كل زمان ومكان"[٥١].

ومثلما كانت كلمات القرآن التامات أولى كلمات الحسين عند خروجه من المدينة إلى مكة ومن ثَمّ إلى كربلاء، فقد كان القرآن أيضاً آخر كلماته وهو يودع أصحابه فرداً فرداً مردداً قوله تبارك وتعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[٥٢].

لقد اختصرت هذه الآية المباركة كل رحلة أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) وكل مرحلته وحددت جمهوره وأتباعه وبرّزت أعداءه ومبغضيه.

وحسبه أنه كان يقول وهو يواجه محنته وقدره مُذعناً لأمر الله راضياً بقضائه وقدره: "هَوّنَ ما نزل بي أنّهُ بعينِ الله".

وهكذا استهل أبو عبد الله (عليه السلام) الصعاب تقرباً إلى الله وعملاً بسنته التي لا تبديل لها، وأبى أن ينزل على حكم بني أمية وكيف يعطيهم بيده إعطاء الذليل وهو القائل: "إنّ الدعّي بن الدعّي قد ركز بين اثنتين: بين السلّة والذلة وهيهات منّا الذلة يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون"[٥٣]، وهذا خطاب نابع من كلمات الله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥٤].

وتأملاً لكلمات الحسين (عليه السلام) ومدى ارتباطها بالآية المباركة المذكورة آنفاً، ندرك أنّ التعبير القرآني الذي استحضره أبو عبد الله في يومه الأخير لا يرمي إلى مجرد أداء المعنى الذهني المجرد؛ بل يشعّ بمعانٍ وصورٍ حيّة آخذة من تناسق اللفظ ما عمّق خطابه؛ إذ تعالق قوله (عليه السلام): "...يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون" مع الآية الكريمة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالإمام (عليه السلام) استبعد أن يقع هو وأهل بيته وأنصاره في حضيض الذل والهوان بدلالة اسم الفعل (هيهات)، والآية بوساطة الانزياح التركيبي المتمثل بتقديم الخبر شبه الجملة على المبتدأ؛ لذا فان تقديم ما يستحق التأخير في الآية المباركة جاء مراعاةً لمقتضى الحال[٥٥] وما يتطلبه السياق المبارك؛ إذ جاءت (لام) ملكية العزّة مرتبطة باسم الجلالة والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والمؤمنين، دالة على أنه (سبحانه) ورسوله والمؤمنين مختصون بالعزّة وليس لغيرهم واللام هنا للملك[٥٦].

وبهذا المستوى من المواجهة انبرى الحسين وأهل بيته وأنصاره مجاهدين في سبيل الله سبحانه وتعالى حتى أنّ علياً الأكبر (عليه السلام) قال لأبيه (عليه السلام): "يا أبتاه ألسنا على الحقّ؟ قال: إيْ والذي نفسي بيده، قال: إذاً لا نبالي أن نموت محقين"[٥٧].

وهكذا وقف أبو عبد الله (عليه السلام) هذا الموقف الجليل أثناء المعركة (وقفت وما في الموت شك لواقفٍ) على حدّ تعبير أبي الطيب المتنبي في سيف الدولة الحمداني.

وفي الساعات الأخيرة من المعركة وأبو عبد الله يواجه جيش يزيد بقيادة الطاغية عمر بن سعد وبعد أن توالت عليه (صلوات الله عليه) جروح دامية وهو يطارد الأبطال ويقارع الفرسان ويكشف الأعداء عن

أهل بيته ويناصر أصحابه، بعد كل ذلك رماه أحدهم بسهمٍ فخرج ما بين حنكه وفمه وملأ كفيه دماً فحمد الله سبحانه وهو يقول: "اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تُبقِ منهم أحداً ولا ترضِ الولاة عنهم أبداً"(٥٨).

هذا الدعاء الرسالي المستمد هو الآخر من كلمات الله تبارك وتعالى في سياق الإخبار والتذكير بقدرة الله سبحانه وتعالى وتصّرفه في مخلوقاته كيف يشاء عدّاً وإحصاءً وخلقاً وإماتةً وبعثاً وإحياءً.

لقد أطلق أبو عبد الله (عليه السلام) شعار التغيير فكانت ثورته تغييرية وإصلاحية لا بالمعنى الإصلاحي المتوجه لظاهرة معينة، إنّما إصلاح الواقع الفاسد على أساس التغيير "وأنا أحق مَن غيّر" إذ كان ينطلق للإسلام، فما أكثر ما كان ينصحهم ويعظهم ويفسّر لهم أحكام الإسلام داعياً إلى الله مشفقاً عليهم، استطاع أن يغيّر ولكن بشكل غير مباشر، فكل شعاراته عاشها واقعاً، عاشها في خطاباته وعاشها في موقفه وكان قمة تعاطيه مع شعاراته المقدسة أنّه عاشها في دمائه وأنّ شهادته وأهل بيته وأصحابه (سلام الله عليهم) لهي البرهان الساطع على انسجام الحسين مع خطاباته (بياناته) الملحمية التي وقفنا على عمق ارتباطها بالنصوص القرآنية.

وقد صدق الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري وهو يقول في مرثاته المدوّية (آمنتُ بالحسين)(٥٩):

فـــداءٌ لمثـــواكَ مِـــن مَضْـــجَعِ ... تَنَـــــوَّرَ بـــــالأبلَجِ الأروَعِ

فيـــا أيُّهـــا الـــوتْرُ فـــي الخالديـــ ... ـنَ فـــذّاً إلـــى الآن لـــم يُشْـــفَعِ

إلى أن يقول:

ومـــــاذا أأروعُ مـــــنْ أن يكـــــو ... ن لَحمُـــكَ وَقْفـــاً علـــى المبْضَـــعِ

وان تُطْعِـــم المـــوتَ خيـــرَ البنـــينَ ... مـــنَ الأكهلـــين إلـــى الرُّضَّـــعِ

وخيـــر الصِّـــحاب بخيـــرِ الصـــدو ... ر كـــــانوا وقـــــاءَك، والأذْرعِ

ونشاطر باحثاً فكرته إذ يقول: "لا يزال هتاف الحسين (عليه السلام) يوم عاشوراء (هل من ناصر ينصرني) يدّوي في التاريخ ويستنصر المسلمين جيلاً بعد جيل يطلب منهم أن يقفوا إلى جانبه في معركته ضد الظلم والفساد، من أجل إقامة الصلاة والعدل والقسط في المجتمع"(٦٠).

إنّ "في ثورة الإمام الحسين (عليه السلام) نماذج مشرقة للأجيال، ولنهضته انعكاسات على حركة التاريخ بانعطاف العزة والكرامة"(٦١).

وجدير بالذكر أنّ الخطاب الحسيني، المتخذ من القرآن سداه ولحمته، لن يتوقف باستشهاده (سلام الله عليه) يوم عاشوراء على أرض الطفّ؛ بل استمر هذا الخطاب الكوني مدّوياً إذ قيّض الله له شخصيتين حسينيتين هما زينب وزين العابدين، هاتان الشخصيتان الرساليتان قد رفدتا مبادئ النهضة الحسينية بما

أوتيتا من قوة البيان وقصدية التغيير المنطلق من آيات الله وأحكامها، لأنهما عاشا القرآن في عقلهما وقلبهما ليصبحا الأنموذجين الكربلائيين قيادةً وامتداداً وعطاءً.

وقد آثر الباحثان أن يفردا لهما بحثاً خاصاً يقف عند هذا الخطاب وأثر القرآن فيه ليستكنه فاعليته التعبيرية في أداء المسؤولية الرسالية لحمل الأمانة الإلهية ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[٦٢].

"إن الوظيفة الأساسية للغة البشرية هو السماح لكل إنسان أن يوصل لنظائره تجربته الشخصية"[٦٣].

لذا يرى الباحثان أنّ تناص الخطاب الإمامي مع القرآن قد حقق التفاعل بين الأطراف المتحادثة لكون الخطاب القرآني ذا منزلة إيمانية عميقة ومقدسة عند المسلمين، على الرغم من جهل كل من وجه إليهم الخطاب وعمايتهم؛ لذا جاء الخطاب الحسيني محملاً بدلالات كبيرة يوصلها إلى ذهن المتلّقي ويركزها في عقله.

ولم لا وأسلوب القرآن برقيه ومتانته يجعل أفئدة الناس تهوي إليه، فكثّر الاستشهاد به لما يحمله الخطاب القرآني من جمالية طالما وقف العقل الإنساني عاجزاً أزاءها، لما يتمتع به من بعدٍ عبر توظيف ما هو جمالي في خدمة التواصلي حتى يتمازجا في بوتقة واحدة لم يكن لأي خطاب أدبي أو تواصلي أن يماريه فيه[٦٤].

فسلام على أبي عبد الله الحسين يوم ولد ويوم استشهد في سبيل الله ويوم يبعث حياً، وقد قال رب العزة والجلال ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[٦٥].

الهـــوامـــش

١- تحليل الخطاب الروائي: ١٨.
٢- تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص): ١٢٠.
٣- أشكال التناص وتحولات الخطاب الشعري المعاصر – دراسات في تأويل النص: ١٨.
٤- النقد والحداثة: ٥٧.
٥- المصدر نفسه: ٣٨.
٦- مقتل الحسين (ع): ١٣٨.
٧- وصية الإمام الحسين (ع) لأخيه محمد بن الحنفية – دراسة في المتن والسند: ٤.
٨- القصص: ٢١.
٩- القصص: ٢٢.
١٠- القمر: ٢٣ – ٢٧.
١١- يوسف: ١١١.
١٢- الصحاح: ٥٧٩.
١٣- الأنفال: ٤٧.

١٤- الدخان: ٤٩.

١٥- لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط ثقافته: ٧٧.

١٦- الأعراف: ٧٤، هود: ٨٥، الشعراء: ١٨٣، العنكبوت: ٣٦.

١٧- النجم: ٣ – ٤.

١٨- هود: ٨٨.

١٩- هود: ٩١.

٢٠- بحار الأنوار: ٣٨٢/٤٤، الطبري: ٣٠٤/٤، حوادث سنة ٦١هـ.

٢١- معالم المدرستين: ٨٨.

٢٢- نهضة الحسين: ٦٢.

٢٣- البقرة: ١٢٤.

٢٤- القصص: ٧٧.

٢٥- الأعراف: ٧٤.

٢٦- التناصية: ١٣٢.

٢٧- علم النص: ٢١.

٢٨- ينظر: جماليات الصورة البصرية في القرآن الكريم: ٨٧.

٢٩- ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢٣٤/٢.

٣٠- الإتقان في علوم القرآن: ١١١/١، وينظر أيضاً التعريفات: ٢٣٣.

٣١- آل عمران: ١٠٤.

٣٢- القصص: ٨٣.

٣٣- الأعراف: ٨٨.

٣٤- الشعراء: ١١٨.

٣٥- الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية: ١١.

٣٦- ينظر: معالم المدرستين: ١١٦/٣، ومصادر المؤلف في الصفحة ذاتها.

٣٧- ينظر: خصائص الأسلوب في الشوقيات: ٣٤٩.

٣٨- يونس: ٧١.

٣٩- النحل: ١٢٥.

٤٠- معالم المدرستين: العلاّمة السيد مرتضى العسكري، ط٥، ١٩٩٥، نقلاً عن تاريخ الطبري: ط. أوربا، ٣٢٩/٢، وابن كثير: ١٧٩/٨، وينظر كذلك: بحار الأنوار: ٦/٤٥.

٤١- الأعراف: ٧٢.

٤٢- تفسير الفخر الرازي: ٣٩٧/٢٥.

٤٣- يس: ٨١.

٤٤- المستويات الجمالية في نهج البلاغة – دراسة في شعرية النثر: ١٩٨.

٤٥- نهضة الحسين: ٧١.

٤٦- آل عمران: ١٩.

٤٧- الإسراء: ٩.

٤٨- نهضة الحسين: ٧٢.

٤٩- الصافات: ١٠٧.

٥٠- الندوة: ٤٥٠/٥.

٥١- نهضة الحسين: ٩٢ – ٩٣.

٥٢- الأحزاب: ٣.

٥٣- ينظر: معالم المدرستين: ١٢٢ – ١٢٣ نقلاً عن تاريخ ابن عساكر: ٦٧٠ وتهذيبه: ٢٣٤/٢ ومقتل الخوارزمي: ٧/٢.

٥٤- المنافقون: ٨.

٥٥- ينظر: نحو المعاني: ٨٤.

٥٦- التحرير والتنوير: ١٠٦/١٨.

٥٧- بحار الأنوار: ٧٩٨/٤٤.

٥٨- بحار الأنوار:٣٦/٣٤-٤٥.

٥٩- ديوان الجواهري: ٤٩١/٣-٤٩٣.

٦٠- الخطاب السياسي الموجّه إلى أنصار الحسين (عليه السلام): ٤.

٦١- دور المرأة في النهضة الحسينية – السيد محمد باقر الحكيم (انظر مقدمة الناشر).

٦٢- الأحزاب: ٧٢.

٦٣- اللغة العليا: ٢٧.

٦٤- ينظر: الإشارة الجمالية في المثل القرآني: ٧.

٦٥- يس: ١٢.

المصـــــادر والمراجـــــع

- القرآن الكريم.

١. الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الندوة ،لا. ط، بيروت ، ١٩٥١م.

٢. الإشارة الجمالية في المثل القرآني: د.عشتار داود محمد، اتحاد الكتّاب العرب، ط١، دمشق، ٢٠٠٥م.

٣. أشكال التناص وتحولات الخطاب الشعري المعاصر، دراسة في تأويل النص، د. حافظ المغربي، النادي الأدبي، ط١، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠١م.

٤. الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية: د. احمد محمد ويس، المؤسسة العامة للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ٢٠٠٥م.

٥. بحار الأنوار: العلاّمة محمد باقر المجلسي(ت ١١١١هـ)، ط٢، بيروت، ١٩٨٣.

٦. التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٨٤م.

٧. تحليل الخطاب الروائي: د. سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، ط٣، بيروت، ١٩٧٩م.
٨. تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص): د. محمد مفتاح، دار التنوير، ط١،بيروت، ١٩٨٥م.
٩. تفسير الفخر الرازي – التفسير الكبير الإمام الرازي (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط٢، بيروت، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.
١٠. التعريفات: الشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب، ط١، بيروت، ١٩٨٣م.
١١. التناصية: مارك انجينو، بحث في أنساق حقل مفهومي وانتشاره، ضمن كتاب آفاق التناصية، ترجمة: د. محمد خير البقاعي، الهيأة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.
١٢. جماليات الصورة البصرية في القرآن الكريم: أطروحة دكتوراه، سلام رسن حديد المالكي، جامعة البصرة – كلية التربية، ٢٠٠٧م.
١٣. الخطاب السياسي الثقافي الموجّه إلى أنصار الحسين (عليه السلام) بمناسبة الذكرى الأربعينية لسنة ١٤٢٦هـ، محمد مهدي الآصفي، لا.ط، د.ت.
١٤. خصائص الأسلوب في الشوقيات: محمد الهادي الطرابلسي، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٨١م.
١٥. دور المرأة في النهضة الحسينية: السيد محمد باقر الحكيم، ط، قم المقدسة، ٢٠٠٤م.
١٦. ديوان الجواهري: محمد مهدي الجواهري، ج٣، دار الحرية للطباعة والنشر، ط٢، بغداد،٢٠٠٨م.
١٧. الصحاح: الجوهري (٣٩٣هـ)، تحقيق احمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، ط٤، بيروت، ١٩٨٧م.
١٨. علم النص: جوليا كريستيفا، ترجمة: الأستاذ فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، ط٢، المغرب، ١٩٩٧م.
١٩. لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة – فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط ثقافته: عبد الفتاح احمد، الدار العربية للعلوم والنشر، ط١، بيروت،١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.
٢٠. اللغة العليا: جون كوين، ترجمة: احمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٥م.
٢١. المستويات الجمالية في نهج البلاغة – دراسة في شعرية النثر: نوفل أبو رغيف، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٨م.
٢٢. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ)، تحقيق: د. احمد الحوفي، والدكتور بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، ١٩٦٠م.
٢٣. مقتل الحسين: محمد تقي بحر العلوم، دار الزهراء، بيروت، ط٣، ١٩٨٢م.
٢٤. معالم المدرستين: العلاّمة مرتضى العسكري، المجمع العلمي الإسلامي، ط٥، ١٩٩٥م.
٢٥. نحو المعاني: د. احمد عبد الستار الجواري، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٧م.
٢٦. الندوة: السيد محمد حسين فضل الله،سلسلة ندوات الحوار الأسبوعية بدمشق، ج٥،دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، بيروت، ٢٠٠٠م.
٢٧. النقد والحداثة: د. عبد السلام المسدي، دار الطليعة، ط١،بيروت، ١٩٨٣م.
٢٨. نهضة الحسين: بقلم الحجة الأكبر هبة الدين الشهرستاني، لا.ط، د.ت.
٢٩. وصية الإمام الحسين (ع) لأخيه محمد بن الحنفية، دراسة في المتن والسند: د. حسن كاظم أسد، مطبعة النجف الأشرف، ط١، د.ت.